

ما هو التأهيل المجتمعي؟ دليل مبسط لفهم فكرة غيرت حياة الملايين

مقدمة: قصة تلهم وفكرة تُغير

منذ أن كانت في الثامنة من عمرها، كانت "إيمان" تشتكي من نوبات صداع حادة. لم تكن أسرته تعرف ما الذي ينبغي فعله، فأرسلتها عدة مرات إلى المستوصف بالقرية للكشف الطبي. لكن حالتها لم تتحسن، وبدأت إيمان تفقد بصرها ببطء. فقام المركز الصحي بتحويلها إلى المستشفى الرئيسي في المدينة، حيث وُضعت على قائمة انتظار طويلة لإجراء عملية جراحية. بسبب فقر أسرته، لم يكن باستطاعتهم تحمل تكلفة العلاج في مستشفى خاص. مع مرور الوقت، فقدت إيمان معظم بصرها، وأدى ذلك إلى توقفها عن الدراسة ودخولها في حالة من الاكتئاب والعزلة. تسلط قصتها الضوء على فجوة مأساوية موجودة في العديد من المجتمعات: نقص الخبرة المحلية ميسورة التكلفة، ونظام أجبرها على الانتظار بينما كانت حالتها تزداد سوءاً.

عندما كانت على وشك فقدان الأمل، تدخل فريق من برنامج التأهيل المجتمعي. قاموا بترتيب موعد لها مع أخصائي جراحة أعصاب اكتشف وجود ورم حميد في دماغها. بفضل مساهمة البرنامج في تغطية تكاليف الجراحة، تمكنت إيمان من إجراء العملية بنجاح. اليوم، تعافت إيمان تماماً. صحيح أنها فقدت بصرها بسبب التأخر في التدخل، لكنها تلقت تدريباً على التنقل وتتعلم الآن طريقة برايل للعودة إلى المدرسة. لقد تغيرت حياتها بشكل جذري، من العزلة واليأس إلى الاستقلالية والأمل.

قصة إيمان ليست فريدة من نوعها. يعيش ما يقدر بحوالي 80% من الأشخاص ذوي الإعاقة في البلدان النامية، حيث يواجهون تحديات هائلة في الوصول إلى الرعاية الصحية والتعليم وفرص العمل. فكيف يمكننا بناء مجتمعات تضمن للجميع، بمن فيهم الأشخاص ذوو الإعاقة، فرصة لتحقيق إمكاناتهم؟ الإجابة تكمن في استراتيجية تُعرف باسم **التأهيل المجتمعي (CBR)**.

إعادة التفكير في الإعاقة: من مشكلة فردية إلى قضية مجتمعية

لكي نفهم التأهيل المجتمعي، يجب أولاً أن نفهم كيف تطور مفهوم "الإعاقة" نفسه. لم يعد يُنظر إلى الإعاقة اليوم بنفس الطريقة التي كان يُنظر بها في الماضي. لقد تحول الفهم من التركيز على الفرد إلى التركيز على المجتمع.

يوضح الجدول التالي هذا التحول الجذري في التفكير:

النموذج الطبي (النظرة القديمة)	النموذج الاجتماعي والحقوق (النظرة الحديثة)
الإعاقة مشكلة فردية: كان يُنظر إلى الإعاقة على أنها خلل أو ضعف بيولوجي يكمن داخل الشخص.	الإعاقة قضية مجتمعية: يرى هذا النموذج أن المشكلة الحقيقية تكمن في الحواجز الموجودة في المجتمع والتي تمنع المشاركة الكاملة.
التركيز على العلاج: كان الحل الرئيسي هو تقديم الرعاية الطبية والعلاج من قبل المتخصصين بهدف "إصلاح" الفرد.	التركيز على إزالة الحواجز: تشمل هذه الحواجز المواقف السلبية، التمييز، المباني غير المجهزة، وصعوبة الوصول إلى المعلومات. الحل يكمن في التغيير الاجتماعي.
دور سلبي للفرد: كان الشخص ذو الإعاقة متلقياً سلبياً للرعاية، مع قليل من التحكم في القرارات التي تؤثر على حياته.	دور فعال للفرد: هذا التحول هو نتاج حركة حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة العالمية، التي رفعت شعار: "لا شيء يخصنا من دوننا"، مؤكدة على ضرورة مشاركتهم في صنع القرارات التي تخصهم.

باختصار، كان التغيير ثورياً. تحول السؤال من "ما هو الخلل في هذا الشخص؟" إلى "ما هو الخلل في المجتمع الذي يخلق حواجز لهذا الشخص؟". هذا هو الأساس الفلسفي الذي بُني عليه التأهيل المجتمعي بأكمله.

هذا الفهم الحديث هو ما تبنته اتفاقية الأمم المتحدة بشأن حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة، التي تعرف الإعاقة بأنها:

"تحدث بسبب التفاعل بين الأشخاص المصابين بعجز والحواجز في المواقف والبيئات المحيطة التي تحول دون مشاركتهم مشاركة كاملة فعالة".

هذا التحول الجذري في التفكير هو الذي مهد الطريق لظهور استراتيجية التأهيل المجتمعي، التي لا تركز على الفرد وحده، بل على المجتمع بأسره.

ولادة فكرة: موجز تاريخ التأهيل المجتمعي

لم تظهر فكرة التأهيل المجتمعي من فراغ، بل كانت نتيجة تطور في الفكر العالمي حول الصحة والتنمية. بدأت القصة رسمياً بعد إعلان ألما-اتا عام 1978، عندما أطلقت منظمة الصحة العالمية المبادرة كوسيلة لتحسين وصول الأشخاص ذوي الإعاقة إلى خدمات التأهيل الأساسية في البلدان منخفضة الدخل.

في البداية، كان التركيز على الرعاية الصحية. لكن الممارسين في الميدان سرعان ما أدركوا حقيقة عميقة: لا يمكنك شفاء شخص بمعزل عن عالمه. ما فائدة ساق اصطناعية إذا لم تكن هناك وظائف متاحة؟ وما فائدة تعلم القراءة إذا كانت المدارس غير مرحة؟ هذا الإدراك هو الذي حول التأهيل المجتمعي من مجرد برنامج صحي إلى استراتيجية شاملة لتنمية المجتمع.

تُوج هذا التطور بإصدار ورقة الموقف المشترك لعام 2004 من قبل منظمة العمل الدولية واليونسكو ومنظمة الصحة العالمية، والتي عرفت التأهيل المجتمعي الحديث بأنه:

"استراتيجية ضمن التنمية المجتمعية العامة للتأهيل، والحد من الفقر، وتحقيق تكافؤ الفرص، والإدماج الاجتماعي لجميع الأشخاص ذوي الإعاقة".

ولكن كيف يمكن تنظيم هذا النهج الشامل والمتعدد القطاعات على أرض الواقع؟ الإجابة تكمن في أداة أساسية تُعرف باسم مصفوفة التأهيل المجتمعي.

خارطة الطريق للشمول: شرح مصفوفة التأهيل المجتمعي

لتنظيم العمل وضمان تغطية جميع جوانب حياة الفرد، تم تطوير مصفوفة التأهيل المجتمعي. فكر فيها كـ "خارطة طريق" تساعد المجتمع على إيجاد مساره الفريد نحو الشمولية. إنها ليست قائمة مهام صارمة، بل هي دليل مرن يعترف بأن "تضاريس" كل مجتمع (احتياجاته وموارده) مختلفة، ويمكن تكييفها لتلبية الأولويات المحلية.

تتكون المصفوفة من خمسة مكونات رئيسية، يمثل كل منها قطاعاً حيوياً في التنمية:

- **الصحة:** (لا يتعلق الأمر بالعلاج فقط، بل بالوقاية والرفاهية أيضاً)

- تعزيز الصحة
- الوقاية
- الرعاية الطبية
- التأهيل
- الأجهزة المساعدة
- **التعليم:** (ضمان الوصول إلى التعلم في كل مرحلة من مراحل الحياة)
 - الطفولة المبكرة
 - التعليم الابتدائي
 - التعليم الثانوي والعالي
 - التعليم غير النظامي
 - التعليم المستمر مدى الحياة
- **كسب العيش:** (القدرة على كسب الرزق والاستقلال المالي)
 - تنمية المهارات
 - العمل الحر
 - العمل مدفوع الأجر
 - الخدمات المالية
 - الحماية الاجتماعية
- **المكون الاجتماعي:** (أن تكون جزءاً من حياة المجتمع — من الأسرة إلى الثقافة والعدالة)
 - المساعدة الشخصية
 - العلاقات والزواج والأسرة
 - الثقافة والفنون
 - الترفيه والرياضة
 - العدالة
- **التمكين:** (القدرة على التعبير عن الرأي، اتخاذ القرارات، وقيادة التغيير)
 - المناصرة والتواصل
 - الحشد المجتمعي
 - المشاركة السياسية
 - جماعات المساعدة الذاتية
 - منظمات الأشخاص ذوي الإعاقة

يعتبر مكون التمكين هو المحرك الأساسي لهذه المصفوفة. إنه الشرط الذي يضمن للأشخاص ذوي الإعاقة وأسرهم القدرة على الوصول إلى جميع القطاعات الأخرى والمطالبة بحقوقهم وتحسين نوعية حياتهم.

هذه المصفوفة ليست مجرد مخطط نظري، بل هي أداة عملية لإحداث تغيير حقيقي في حياة الناس والمجتمعات.

التأهيل المجتمعي على أرض الواقع: إحداث الفرق

التأهيل المجتمعي ليس مجرد فكرة جميلة، بل هو استراتيجية عملية لمعالجة بعض أكبر التحديات في العالم، وعلى رأسها الفقر. العلاقة بين الفقر والإعاقة هي علاقة دائرية ومدمرة: "الفقر هو سبب ونتيجة للإعاقة". هذا يعني أن الفقر يمكن أن يؤدي إلى الإعاقة (بسبب سوء التغذية أو نقص الرعاية الصحية)، والإعاقة يمكن أن تؤدي إلى الفقر (بسبب التمييز وصعوبة الوصول إلى التعليم والوظائف).

وكما قال جيمس ولفينسن، الرئيس السابق للبنك الدولي:

"ما لم يتم وضع ذوي الإعاقة في صلب تيار التنمية سيصبح من المستحيل الحد من الفقر".

لفهم دور التأهيل المجتمعي، فكر في اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة على أنها المخطط الهندسي لمجتمع شامل ومتاح للجميع؛ فهي تظهر لنا كيف يجب أن يبدو المبنى النهائي. أما التأهيل المجتمعي فهو فريق البناء المجتمعي على الأرض، الذي يصب الخرسانة للمنحدرات، ويوسع المداخل، ويضمن أن كل طابق يمكن الوصول إليه. لا يمكن لأحدهما أن يوجد بدون الآخر.

تساهم برامج التأهيل المجتمعي في تطبيق الاتفاقية بطرق عملية ومباشرة، منها:

- نشر الوعي: تعريف الناس في المجتمعات المحلية بالاتفاقية وما تعنيه لهم.
- بناء الشراكات: العمل جنباً إلى جنب مع الحكومات المحلية والمنظمات الأهلية ومنظمات الأشخاص ذوي الإعاقة لتنفيذ بنود الاتفاقية.
- المناصرة: الضغط من أجل سن قوانين وسياسات دامجة على المستويين الوطني والمحلي في قطاعات الصحة والتعليم والعمل.
- تنسيق الجهود: ربط المبادرات المحلية بالسياسات الوطنية، وضمان وصول صوت المجتمعات إلى صناع القرار.
- تنفيذ الأنشطة: العمل المباشر على جعل الخدمات الصحية والتعليمية وفرص كسب العيش متاحة وميسرة للجميع دون تمييز.

في نهاية المطاف، يتجاوز التأهيل المجتمعي كونه مجرد برنامج؛ إنه فلسفة عمل لبناء مجتمعات أفضل للجميع.

الخاتمة: مجتمع للجميع

التأهيل المجتمعي هو، في جوهره، تحول في المنظور: من التركيز على "عجز" الفرد إلى التركيز على "قدرة" المجتمع على احتواء الجميع وشمولهم. إنه يدرك أن القوة الحقيقية للتغيير لا تكمن في الخبراء أو المؤسسات الكبيرة فحسب، بل في النسيج الاجتماعي نفسه.

إن نجاح هذه الاستراتيجية لا يعتمد فقط على الحكومات أو المنظمات، بل على تضافر جهود الأشخاص ذوي الإعاقة أنفسهم، وأسرهم، وجيرانهم، والمعلمين، والعاملين الصحيين—أي المجتمع بأكمله. إنه دعوة للجميع للمشاركة في بناء بيئة تُحترم فيها الفروق، وتُتاح فيها الفرص للجميع على قدم المساواة.

في مدرستك، أو حيك، أو مكان عملك المستقبلي، ابحث عن الحواجز—سواء كانت مادية أو اجتماعية أو في المواقف. تعلمنا فلسفة التأهيل المجتمعي أن إزالة حاجز واحد ليس مجرد عمل خيري، بل هو فعل لبناء مجتمع أقوى وأكثر عدلاً للجميع. يبدأ التغيير بالملاحظة، وبينه كل واحد منا.